في السنوات الأخيرة كثيرا ما نرى ونسمع ونقرأ في كل وسائل الإعلام (المقروءة والمكتوبة والمرئية والمسموعة) وفي الحديث العام مع المعارف والأقارب والجيران وفي دور العبادة عن ظاهرة الطلاق بين الزوجين، وهذه الظاهرة بدأت تشمل كل الأعمار الزوجية فمنها في الأيام الأولى من بدايتها ومنها في منتصف عمرها أو حتى في وقت متأخر منها، حتى أننا بدأنا نسمع بأنّ هناك حالات طلاق بين زوجين بعد 30 سنة أو أكثر من الحياة الزوجية المشتركة.

ظاهرة الطلاق هذه بدأت تشمل كل الفئات الاجتماعية بغض النظر عن الوضع الاجتماعي (العمالية والمثقفة، الفقيرة والغنية) وللأسف نحن شاهدين على حالات طلاق بين فئة المثقفين مثلا (الزوجين أساتذة في الجامعات وغيرهم). ظاهرة الطلاق بدأت تنتشر وتتحول إلى مشكلة اجتماعية ودينية كبيرة ونستطيع أن نطلق عليها اسم " كارثة اجتماعية- دينية" عند الأخذ بعين الاعتبار كل الأضرار والمشاكل والصعوبات والمخاطر التي تنتج عن الطلاق وخاصة بالنسبة للأولاد وتربيتهم وتنشئتهم ورعايتهم ومصيرهم وخاصة أننا نعرف تماما بأنّ تربية وتنشئة الطفل السليمة والصحيحة تتطلب وجود الأب والأم معا وغياب أي منهما سيكون خسارة للطفل لا تعوّض مدى الحياة. عند الحديث عن ظاهرة الطلاق وقبل أن نتطرق إلى أهم أسبابها وطريقة معالجتها والوقاية والحد منها نرى أنّه من الضرورة أن نتحدث عن الأسرة وأهميتها في المجتمع من الناحية الدينية والاجتماعية والنفسية وخاصة عندما نتذكّر ما جاء في الكتاب المقدس " ما جمعه الرّب لا يفرّقه إنسان".

الأسرة وجدت مع وجود المجتمعات الإنسانية، ونستطيع القول بأنّ المجتمعات الإنسانية وجدت بوجود الأسرة. سوف تستمر المجتمعات تستمد ديمومتها من خلال ديمومة الأسرة، ولقد ارتبط تغيّرها بتغيّر المجتمعات سواء أكان من حيث بنيتها أو وظائفها، فعرفت المجتمعات أشكالا متعددة للأسرة، وأنماطا عديدة للزواج، وصلات القربى، ونشأ في كل مجتمع نموذج للأسرة، يلازمه نظام معين للقرابة ينسجم معه تماما. في شـرح، تفسير مفهوم الأسرة يوجد العديد من الاتجاهات الضرورية، وفي نفس الوقت تكون هذه الاتجاهات محقة ومشروعة، لأنّ كلّ فرع من العلوم المعنيّة بالأسرة يشرحها ويحددها حسب حقل ومجال عمله، أي حسب المعرفة التي يتناولها هذا الحقل أو المجال مثل علم: التربية، النفس، الاجتماع، الطب، الاقتصاد، الحقوق، الفلسفة، السياسة، الأخلاق، الجمال، الأنتربولوجيا (Anthropology = علم الأجناس البشرية أي علم الإنسان) والفنون والدين وغيرها أو حسب المعرفة أو الاتجاهات الدينية المختلفة. بالرغم من كلّ هذه الاتجاهات المتشابهة أو المختلفة. الكثير من العلماء في هذه المجالات أو الاتجاهات يتفقون بأنّ الأسرة هي الخلية البيولوجية والاجتماعية الأساسية في لحمة الحياة الاجتماعية بكلّ ما تحتويه معانيها في هذا المجال.

إنّ بعض الأنتربولوجيون يفترض بأنّ المجتمع الإنساني قد بدأ على شكل علاقة بين رجل وامرأة، وأنّ هذه العلاقة قد أدّت إلى إنجاب الأطفال وإلى تكاثر متواتر شكل بدوره الوجود الاجتماعي وينبوعه، ويترتب على ذلك الافتراض أنّ العلاقة بين الإنسان والإنسان قد بدأت في إطار وحدة اجتماعية صغيرة أطلق عليها الباحثون الأسرة أحيانا والعائلة أحيانا أخرى. وهذا بالواقع ما نجده في بعض المراجع، الصحف والوسائل المرئية والمسموعة وفي الحديث اليومي العادي نصادف باستخدام كلمة الأسرة والعائلة والأهل ككلمة تدل بمعناها على الارتباط الأساسي لأقرباء معنيين تجمعهم قرابة جماعية مشتركة.
بالواقع، هنا يجب أن نعرف بأنّه توجد بين هذه الكلمات بعض معاني التشابه أو الاختلاف، وهذا التشابه والاختلاف لا بدّ من تفسيره وشرحه وتحديده، لأنّ هذه الكلمات ليست مرادفات وليست متشابهة. نحن كلمة الأسرة نفهمها بأنها تشمل الأقرباء أو غير الأقرباء الذين يعيشون في خلية اجتماعية واحدة أي تربطهم علاقات من الزواج ورباط الدم والتبني أي الجماعة الأولية التي تضم الأب والأم والأولاد والتي تتميز بمكان الإقامة المشتركة والتعاون الاقتصادي المشترك. كلمة العائلة هي بمعناها وبمفهومها أشمل وأوسع لأنها تشمل وتضم الأقارب الذين يمتدون روابطهم أو جذورهم من الجذر أو الرابطة الأصلية أو الأساسية، من هذا المفهوم واضح بأنّ كل أعضاء أسرة معينة ليسوا أعضاء نفس العائلة، لأنّه بالواقع الأب (الزوج) يتبع أو يعود لعائلة ما، والأم (الزوجة) قد تتبع أو تعود لعائلة أخرى. كلمة العائلة، كلمة أجنبية وتعود إلى الأصل اللاتيني (Fam'ly) وتستعمل في عدة لغات ومنها اللغة الألمانية مثلا أو اللغة الفرنسية (Fam'lle). أمّا كلمة الأهل ففي غالب الأحيان تدل بمعناها ومفهومها ومحتواها على الأب والأم في الأسرة كأهل للطفل المولود أو المتبني.

الأسرة هي الخلية أو الوحدة الأساسية والرئيسية للمجتمع والتي فيها يحصل على المبادئ التربوية الأساسية والرئيسية في جميع ميادين الحياة. عملية التنشئة الاجتماعية التي يتم فيها تنشئة الطفل حتى نموه ونضجه ومسؤوليته الاجتماعية تتم أولا في الأسرة، وهذا يعني بأنّ عملية التنشئة الاجتماعية هي عملية تكيّف الفرد على العادات والتقاليد والمعايير الاجتماعية التي تحدد تصرفاته وأعماله والتي تتطلب منه تقبّل واجباته ومسؤولياته كفرد في المجتمع والتي تقوده وتحقق له أخيرا المساواة الاجتماعية. الأسرة هي العامل التربوي الأساسي والرئيسي المسئول عن نمو وتطور شخصية الطفل الصحيحة والسليمة، وبخاصتها الفريدة هذه ليس لها أي بديل كان. الأسرة تشمل وتضم أعمق المشاعر والرابطة الدموية تربطها بالوحدة الاجتماعية الأساسية، ومن هنا تأثيرها التربوي الأقوى والأعمق من أي تأثير آخر من الممكن أن يتبناه أو أن يتأثر به الطفل. في بعض المراجع نجد بأن مفهوم الأسرة يشرح أو يفسر أو يعرف بأنها مجموعة اجتماعية، تاريخيا متغيرة الشكل والتي في محيطها الداخلي يتم التكاثر والوجود الاجتماعي، أي العملية الطبيعية للإنجاب (التكاثر) وهذا ما يعني الولادة، النمو والنضج والوفاة من ناحية، ومن ناحية أخرى التكاثر الاجتماعي والثقافي والذي يتم في عملية التنشئة الاجتماعية.

في الشكل التركيبي، الأسرة نستطيع أن نحددها بأنّها اتحاد بين أفراد ناضجين مختلفين الجنس (الزوجين) وأولادهم المولودين أو المتبنيين، الأسرة هي مجتمع الأب والأم والأولاد، الأسرة كأساس الحياة المشتركة، هي ينبوع ونواة الحياة، فيها تتشكل وتنمو حياة جديدة، فيها تتشكل، تنمو وتتطور الخصائص الإنسانية الأولية، فيها يعيش على الأقل جيلين وعادة هم الأهل والأولاد، هي الصلة الأساسية والرئيسية بين الفرد والمجتمع، هي الوسط الذي ليس له أي بديل وفي هذا الوسط يستطيع الفرد أن يظهر جميع خصائصه الخاصة والعميقة وفيه يجد كل العطف والحنان والمحبة، هذا الوسط كان وسيكون الخلية الأساسية والرئيسية التي من أهم وظائفها أن يؤمن ويحقق الشروط والإجراءات الأولية لنمو وتطور الطفل الذي هو أساس وركيزة المجتمع، أي أنّه الوسط المسئول عن ولادة، نمو وتطور هذا الطفل الذي سيحقق استمرارية هذا المجتمع، هذا هو الوسط الأساسي لتكوين كل مجتمع والمجتمع الإنساني ككل.
الأسرة نستطيع أن نحددها من حيث وظيفتها التربوية بأنّها " خلية تربوية مشتركة للأهل والأولاد" مبنية على أسس وقواعد الحب والعطف والحنان، ومن خصائصها المميزة العيش والسكن المشترك والتعاون الاقتصادي لأعضائها. القاعدة الأساسية لتحديد علاقة ووظيفة وأهمية ودور كل من أعضاء الأسرة تتكون من حيث جنس وعمر العضو، وبناء على ذلك نستطيع أن نتحدث عن أربعة أدوار رئيسية وأساسية في الأسرة وهي: الزوج-الأب، الزوجة-الأم، الابن- الأخ، البنت- الأخت.

من النظرة الاجتماعية الأسرة تقوم بدور وسيط وبهذا الدور يتعلق التتابع الاجتماعي-الثقافي، الاستقرار وتتابع بقاء كل مجتمع. الأسرة تقوم بدور الوسيط بين كليتين: المجتمع وشخصية الفرد، من جهة هي منظمة ومتوافقة حسب النظم والقيم الأساسية الاجتماعية المهيمنة، ومن جهة ثانية تنظيمها بهذا الشكل والأساس يعطيها إمكانية نقل هذه القيم على أولادها وتعمل معهم على تقبلها في تنشئتهم وتربيتهم وحياتهم المشتركة وتحقيقها في حياتهم الاجتماعية ومن ثم نقلها على أولادهم مستقبلا. من هنا الأسرة بالنسبة للفرد-العضو تظهر بدور وأهمية الجماعة الاجتماعية الأولية والأساسية التي فيها أعضائها يحصلون على المعرفة الإنسانية الأوليّة، الخبرة والشعور المباشرة وجه لوجه (face and Face) العلاقات والتفاعل مع الناس الآخرين. لذلك الأسرة تقع تحت تأثير قاعدتين أساسيتين ورئيسيتين: القاعدة الأولى التي يفرضها الوسط الاجتماعي المحيط بها، والقاعدة الثانية التي يفرضها نظام التعامل والتفاعل المشترك ما بين أعضائها. بالواقع هذه الخصائص الأساسية للأسرة تمكّن من سرعة وجدية تلقي واستيعاب المعلومات والقيم والعادات والتقاليد وسهولة مواجهة وإيجاد الحلول المناسبة للمشاكل التنموية التي عادة تتابع نمو وتطور الفرد من طفل إلى شخصية اجتماعية ناضجة. على هذا الشكل الواقعي، الأسرة لا تقوم فقط بتأمين التتابع الاجتماعي الثقافي الأساسي لأفرادها والذي بدونه لا يمكن نمو وتطور المجتمع والإنسانية، ولكن في نفس الوقت وبهذا الشكل الأسرة تحت تأثير بعض العوامل والشروط الاجتماعية تستطيع أن تكون القوة المحافظة على أفرادها من كلّ التغيرات الاجتماعية غير اللائقة أو غير المناسبة والمضرة لأعضائها وللمجتمع من جهة، ومن جهة أخرى وبنفس الشكل من الممكن أن تكون هذه القوة المحافظة حاجزا سلبيا لتقبل التغيّرات الاجتماعية الضرورية والإيجابية لأعضائها وللمجتمع.

لذلك، نستطيع أن نؤكد بأنّ الأسرة هي عامل وسيط بين المحيط الاجتماعي والطفل، وبأنّها بوظيفتها ودورها مدرسة ملائمة ومهمة جدا لنمو وتطور العلاقات الاجتماعية والعاطفية والزوجية والإنسانية. نحن نعرف تماما، بأننا اليوم نعيش في المجتمع- الذي فيه الحياة الاجتماعية المشتركة لا تتقبل ولا بأي شكل كان الانفرادية والعزلة، وخاصة العزلة الأسرية. الأسرة لا نستطيع وليس من المحبّذ والجيد ولا بأي شكل من الأشكال أن نعزلها أو أن نضعها جانبا وبعيدا من وعن قواعد الحياة الاجتماعية المشتركة. الأسرة هي نواة المجتمع وقسم أساسي ورئيسي منه، والحياة الأسرية من الضروري أن تكون في خدمة نمو وتطور وإثراء علاقات اجتماعية إنسانية بين أفرادها وأعضائها مبنية على أسس وقواعد وركائز الحب والعاطفة والاحترام والثقة والأمن والتفاهم المتبادل، لأنّ هذه القواعد والأسس والركائز هي الأساس القوي والأساسي والرئيسي لأسرة وحياة زوجية سعيدة ناضجة ولمجتمع سعيد متطور ومزدهر.

يتبع في العدد القادم .....

م. نـديم سلـــوم
(ماجستير في العلوم الإنسانية ومعالج نفسي)

زيارة الصفحة الأصلية من الموضوع